الباب الثالث
تاريخ الميلاد

أرض الجليل

وُلد السيد المسيح بأرض الجليل- أو جليل الأمم كما كان يسُميها الإسرائيليون، لأنها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية، ولم يخلص سكنه للإسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان.

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة: الإحاطة؛ لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحُال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين، ولا سيما الجنوب.

وكانت الجليل جزء ا من أقاليم الشاطئ الشمالية التي عُرفت في التاريخ القديم باسم كنعان، ثمُ أطلق عليها اليونان اسم «فينيقية» من اللون الأحمر على ما يظهر، وهولون الصخور والجبال.

وقد امتازت كنعان قديمًا بالموانئ الصالحة، ووقوعها على طريق التجارة من البحرالأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق، واشتهرت في هذه الموانئ صيدا وصور وحيفاً، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور؛ لأن الشواطئ الجنوبية خَلت في الزمن القديم من الموانئ الصالحة، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء، وهي يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف.

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الز من بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الإنسانية، وراجت فيها الصناعات، والمعارف العلمية والنظرية، ولا سيما المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن، ورصد الكواكب، والكتابة، حتى تواتر أن تجُار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوربية.

وقد دخل بعض بلاد الجليل – أو كنعان – في مملكة داود بعد إنشائها، ولكنَّ العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء، إنْ لم تكن علاقة حربٍوعداءٍ،وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم، وعولوا عليهم في الصناعة والتجارة، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في تشييد الهياكل والقصور اليهودية، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسل إلى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمربقطع الخشب، لبناء الهيكل، ويقول

له: «إنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين[1]» ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صور وأمه من سبط نفتالي، «وكان ممتلئاً حكمة وفهماً ومعرفة لكل عمل في النحاس».

وقد جاء في الإصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال أنهم كانوا يتجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى، وغيرها من منقولات الأمم الأخرى.

واعتمد اليهود على الكنعانيين في شئون الثقافة والفن، ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة، فنقلوا عنهم الكتابة، وأوزان الشعر، وأناشيد الصلوات، وحدث غير مرة أنهم تركوا عقائدهم، وتحولوا عنها إلى عقائد الكنعانيين، وإلى ذلك يشُير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول: «وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم، تركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر.» وإلى ذلك أيضا يشيرالعهد القديم في سفر الملوك الأول، حيث يقول النبي إيليا:» إن بني إسرائيل قد تركواعهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك»، إلى أنْ يقول: «وقد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف، وهم كل الركب التي لم تجث للبعل، وكل فم لم يقُبله».

ولما تكاثر عدد اليهود المُقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم، ونظر إليهم أبناء اليهودية نظرتهم إلى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم، وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم، وكان الواقع أن أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية، أو باليونانية، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى، واقتبسوا كثيراً من مأثورات الفرس والهندوالعراق، لأنهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية، ويرُجح أرض الجليل بعض المؤرخين أن الفينيقيين الأقدمين جميعاً كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جَلَت عنه، وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطئ بحر الروم، وظلت مُحافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية.

وبلغ من بغض أهل اليهودية لأبناء ملتهم في الشمال أن «حنا هيركانوس» المكابي أغار على الأقاليم الشمالية، ومنها بلاد في السامرة، وبلاد في الجليل، فأعاد من فيها من اليهود إلى

---

[1] الإصحاح السابع من الملوك الأول.

الجنوب، وخَير المُقيمين في الشمال بين الهجرة أو قبول الختان وشارات اليهودية؛ ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم، أو من البلاد التي استوطنوها منذ زمن طويل، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم، ولبث أهل الجليل متهَمين منظورًا إليهم بعين الريبة والاستغراب.

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين، وتردد كثيراً في روايات التاريخ أن جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عرباً يتكلمون الآرامية، ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب، ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضًا على غير روية،وكذلك عرف الحواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين.

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم «أنه لا خير يأتي من الجليل» وفي إنجيل يوُحنا أن نثنائيل عجب حين قال له صاحبه:

«إننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسى» وأنه من الناصرة في الجليل، فأجابه مستغرباً:»أمن الناصرة يجيء شيء صالح[1]».

وفي إنجيل يوُحنا أيضًا يروى عن رجال الهيكل أنهم كانوا يقولون متهكمين:»إنه لم يقم نبي قط من الجليل[2]».

كانت السماحة الدينية، وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله في نفوس أبناء اليهودية، المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج، ولكن هذا السبب بعينه هو الذي جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الإنسانية التي ترقبها العالم في ذلك العصر، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الإخاء بين الأمم في كنف الحجر والجمود.

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية، على أثر وفاة هيرود الكبير، وأنها دخلت هي والبادية المجاورة لها في نصيب ابنه هيرود انتيباس، وربما كان عليه السلام في العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام، ولا شك أنه في نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة، ويسمع أخبار الثورة التي

---

1 الإصحاح أأول.

2 الإصحاح السابع.

تقدمتها، وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها، وقد كانت مشكلة التعصب، أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه، وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الروماني طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق الروماني وشهد العبث من ذوي السياسة والإمارة قبل الأوان، وأدرك أن العواصم تهُدم وتبُنى، وأن الدول تدول، وأن الطاغية يتزلف، والمتزلف يطغى، وأن مجد الرياء زيف وخواء، فسبحت نفسه البريئة في آفاق غير هذه الآفاق، وصور لفؤاده الذكي ملكوت السماء في صورة غير الصورة، تخُالفها ولاتزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام.

متى وُلِدَ المسيح؟

يفُهم من رقم التقويم الميلادي أن السيد المسيح وُلد في السنة الأولى للميلاد، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوربية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد، وهي السنة التي دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير Exigus إلى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد، وصح الحساب على تقديره، ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن.

ولم يكن الرجل صغيراً في مكانته الدينية، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه، فلم يسلم من الخطأ في حساب بضع سنوات، ثم تعذر إصلاح هذا الخطأ عند ثبوته، فتقرر استدراكه بإضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم الذي يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة، واعتبروا أن السيد المسيح وُلد في سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم.

أما القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين، فهو أن ميلاد السيد المسيح مُتقدم على السنة الأولى ببضع سنوات، وأنه على أصح التقديرات لم يوُلد في السنة الأولى للميلاد.

ففي إنجيل مَتى أنه عليه والسلام قد وُلد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

وقد جاء في إنجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يُناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومة، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية، وأنه وُلد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

ويذكر إنجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب - أي الإحصاء - في كل المسكونة، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرنيوس والياً على سورية «فذهب الجميع ليكتتبوا كل في مدينته، وصعد يوسف من مدينة الناصرة إلى اليهودية ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر».

والمقصود بالاكتتاب هنا - على ما هو ظاهر - أمر بالإحصاء الذي أشار إليه المؤرخ يوسفوس، وأرخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد، ولا يمكن أنْ يكون قبل

ذلك، لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة، فيكون السيد المسيح إذن قد وُلد في نحو السنة السابعة للميلاد، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين، أو الرابعة والعشرين، وهو تقدير يُخالف جميع التقديرات الأخرى، ويُخالف المعلوم من مأثورات الإسرائيليين، فإن الكاهن اللاوي عندهم كان يبُاشر عمله بعد بلوغ الثلاثين، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والإفتاء في مسائل الفقه الكبرى، ولهذا قالوا عن السيد المسيح إنه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعي أنه يرى إبراهيم ويستمع إليه، ولو أنه بدَأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعُجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين.

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الإحصاء المُشار إليه هو الإحصاء الذي ذكره ترتليان Tertullian، وقال إنه جرى في عهد ساتورنينس Saturninus والي سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد، فإذا كان هذا هو الإحصاء المقصود، فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد.

ومن القرائن التي لا نريد أن نهملها، ّ قرينة الكوكب الذي قيل إن كُهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به إلى المكان الذي وُلد فيه السيد المسيح.

فمن المعروف أن خُبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم، وأنهم كانوا في عصر الميلاد يرقبون حادثاً جللًا في التاريخ البشري حوالي سنة الميلاد، وكانواكذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المترقب من حين إلى حين، وكان قران المشتري وزُحل من الطوالع المهمة عند سكان المشرق على البحر،حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل، وفي داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الإرادة الإلهية، ويكفي أن نذكر بقايا هذه العادة في البقعة الفينيقية إلى ما بعد أيام المعري، لنعلم شأن الأرصاد هنالك، كما كانت في الزمن القديم، وقد كان المعري الضرير يعُنى نفسه بهذه الأرصاد، ويقول عن قران المشتري وزُحل خاصة في لزومياته:

قران المشتري زحلًا يرُجى لإيقاظ النواظر من كراها

وهيهات البرية في ضلال وقد فطن اللبيب لما اعتراها

وكم رأت الفراقد والثريا قبائل ثم أضحت في ثراها

تقضي الناس جيلًا بعد جيل وخلفت النجوم كما تراه

فإذا كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد في البقعة الفينيقية إلى أيام المعري، فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الأرصاد كل الإهمال لأننا نرفض التنجيم،ونرفض دعوى المجوس فيه.

فمن المعقول أن ننُكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب، وطوالع الأفلاك، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي رصدوه، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات.

وقد ذكر فردريك فرار في كتابه «حياة المسيح[1]» أن الفلكي الكبير كيلر حقق وقوع القران بين المشتري وزُحل حوالي سنة ٧٤٧ رومانية، ويقول فرار في وصف هذهّ الظاهرة إن قران المشتري وزُحل يقع في المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتي سنة، ولا يعود إلى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله إلا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر واثني عشر يومًا، وقد تراجع كيلر بالحساب فتبين له أن القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في المثلث النونين أو الحوتين، وأن المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية.

ويظهر من هذا الحساب أن تاريخ الميلاد يضُاهي التاريخ الذي يسُتخلص من التقديرات الأخرى على وجه التقريب، وأن السيد المسيح وُلد في نحو السنة الخامسة أوالسادسة قبل الميلاد.

ونعود فنقول إن إثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك، وكل ما يفُهم، ولا يجوز أن يهمل، أن الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة.

ويؤمنون بدلالتها على أنه احدث عظيم؛ فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور، ولعل الأناجيل قد دُونت والناس يتحدثون بقران فلكي من قبيل ذلك القران في حكم القيصر

---

1 الجزء الأول صفحة ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل.

هادريان، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الرباني عُقبة ليدحض دعوى المسيحيين، وسماه ابن الكوكب «بار كوكبه بالعبرية»، ونقش على العملة التي سكها صورة كوكب، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك الظاهرة الفلكية النادرة، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة.

على أن الدراسات الأخيرة في علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتما إلى مبحث عويص أدق جدا من المبحث الذي يدور حول السنة الميلادية، فإن القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المُطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين، وكان الشك يتناول كل نبي، وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام شكوا في بوذا كما شكوا في إبراهيم وموسى وعيسى، وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين، فشكوا في شخصية هوميروس، وفي شخصية شكسبير، وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة في التاريخ أ نها وُجدت فعلًا، ولكنها لم تضع ما نسبوه إليها، ولم تكتب ما ينُشر بأسمائها.

وقد زار فولتير – إمام الشاكين – بلاد الإنجليز، فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة في شبهاتها عن وجود السيد المسيح، وكان نابليون يسأل العالم الألماني ويلاند: هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وُجد كما وصفوه؟ وجاء القرن التاسع عشر، وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التي ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والإنجليز يفُندون بها أقوال المؤرخين، ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال، وليس من المستطاع في هذا الحيز أن نوُرد أقوالهم مُفصلة أو مُجملة في هذا الموضوع، فإن أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقوها وخلاصة البراهين التي شفعوا بها بيان تلك المسائل؛ تستغرق وحدها كتاباً كهذا الكتاب، ولكننا نجترئ بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح، وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكرفي التواريخ القديمة التي فصلت أخبار عصره، والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم، وبعضها أقرب إلى الأساطيروالفروض.

أما المُؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاستيس Tacitus وسوتينوس Seutonius، وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد، ولم يثُبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه.

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس إشارة مقتضبة إلى «عيسى القديس»، ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة إليه، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث في ذلك العصر، فأباحوا لأنفسهم أنْ يضُيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام يوسفوس، على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها، وليست أمانة المؤلف وحده، سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي ينُكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: «إنه في ذلك العهد عاش عيسى، ذلك الإنسان القديس – إنْجاز أن يسُمى إنساناً – بعد ما أتى به من المعجزات البينات، وعلم الناس، وتلقى الحق فاستبشر به، واتبعه كثير من اليهود والإغريق، وكان هو المسيح».

قالوا: إن يوسفوس اليهودي الذي مات على دين لا يكتب هذا، ولا يؤُمن إيمان المسيحيين، ولو أنه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة أسطر، جاءت عرضًا بغير تعقيب أو تفصيل.

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورنHorne الذي ألف كتابه «مقدمة الدراسة النقدية، والتعريف بالكتب المقدسة»، وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦م[1].

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية، وأن العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلبنان، وأن كُتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والإغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها، وأن يوسفوس قد أشار في موضع آخر إلى جيمس بأسقف أورشليم حيث قال:» إن حنانا عقد السنهدرين اليهودي، وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح، ومعه آخرون، ثم أمر بهم أن يرجموا عقاباً لهم على عصيان الشريعة»

***

[1] Introduction to the Critical Study and Knowledge of the Holy Scriptures.

قال هورن: ولو أن أوسبياس Eusobius، أو مَن استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقا لها لما عدم ناقداً يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس، وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية، بل كان من الراجح جدا أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر، فيفضحوه تفنيدًا له وتفنيدًا للديانة التي يدعيها، وألمع هورن إلى الشكوك التي تحيط بتلك العبارة، لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسبياس، فقال: إن هذه الشكوك لا تقُيم حجة لأصحابها؛ لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين، مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب التوراة.

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودي مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر، ولعله سماه «المسيح» رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحًا، ويعرفونه بشهرته الغالبة.

أما المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية)، فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية، ولم يذكره مباشرة، بل أشار إلى اسمه في سياق الكلام على حريق رومة، حيث قال إن الإمبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس إياه بإحراق المدينة، فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين، وينُسبون إلى المسيح الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت في عهد القيصر طيبريوس.

ولا يعُرف الآن عَلامَ استند تاسيتس في رواية هذه النسبة، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح.

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح، ولكنه قال في تاريخه للقيصر كلوديس: «إنه نفى من رومة جماعة من اليهود الذين كانوا على الدوام يثُيرون المتاعب بتحريض كريستس» وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus، لأن الاسم الْتبس عليه بين كريستس بمعنى الطيب، وكريستس بمعنى المسيح.

وأيًّا كان مستند هذا المؤرخ فلا يسُتفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد، وأنه كان يحسب أن الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ.

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كُتاب ومؤرخون من اليهود، مثل الفيلسوف فيلون، الذي سبق ذكره، والمؤرخ جستس الطبري الذي عاش في الجليل أيام الدعوة المسيحية، وكَتبَ تاريخ قومه عن عهد موسى إلى نهاية القرن الأول للميلاد، ولم ترد في تاريخه إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى الدعوة المسيحية.

تلك خُلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ من ذكر الدعوة المسيحية في عصرها.

أما الحجة الأخرى، وهي حجة التَّشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح،والقصص المروية عن الأرباب في العبادات الشرقية القديمة، فهي تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر في ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق في لغاتها، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبارالمسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد «اثني عشر» الذي يشير إلى البروج، ويشير إلى عدد التلاميذ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد في يوم الاعتدال الخريفي على حساب الأقدمين، والاحتفال بيوم الأحد الذي اعتقدوا قديمًا أنه يوم الشمس، ويعُرف حتى اليوم في اللغات الأوربية بهذه النسبة، وذلك عدا المشابهة في اسم الأم، والولادة في المذود، وركوب «الحمار ابن الأتان»، وغير ذلك من الشعائر والمعجزات.

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولاً لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد، فإن التفسيرات التي فرضوه اتتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية، ولا يكفي أن يقال إن أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع، وبغيرمحور معلوم تدور عليه، وقد توفي بولس الرسول في نحو سنة سبعة وستين ميلادية، وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة، ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التي ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة، وكان تواترها قديما أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين.

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها، ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة

عامة، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص في الأناجيل جميعًا غير ثلاث مرات، فذكر أتباع السيد المسيح باسم المسيحيين في الإصحاح الحادي عشر من أعمال بولس الرسول، حيث قيل إن التلاميذ دعوا «مسيحيين» لأول مرة في مدينة «أنطاكية»، ثم جاء في الإصحاح السادس والعشرين على لسان الملك أغريباس أنه قال محتجًا»: أهون بما تقنعني به أن أصير مسيحيًّا» وجاء في الإصحاح الرابع منرسالة بطرس:»إنْ عُيرتم باسم المسيح فطُوبى لكم ... إن أحدكم لا يتألم لأنه قاتل،أو سارق، أو فاعل شر، أو صاحب فضول، فإنْ تألم لأنَّه مسيحي فلا يخجل».

وجُملة ما يؤُخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة أنَّ ها كانت نسبة ازدراء وتعييرعلى ألسنة أعداء المسيحيين، وليس من الصعب أنْ يضيع الكلام عن طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن في غمار التواريخ، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغرواشأنها، لأنها طائفة مغضوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة؛ فالهيكل ينكرها، والحكومة الرومانية تترفع عنها، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين، وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار!

***

ويبدو لنا أن نشَوة العلم الجديد -علم المقابلة بين الأديان - هي التي دفعت أصحابها في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها، فإننا نرى أمامنا في هذا العصر أن هذه المشابهات لا تنفي ولا تثبت، بل لعلها إلى الإثبات أقرب منها إلى النفي على الإجمال.

نحن نرى في هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون، في نَسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين، لأنه يؤمن بتلك الكرامات، ولا يشك في وقوعها، ولكنه يعتقد أن وليًّا واحدًا هو الجدير بإتيانها، وهو الولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء.

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضُاف إليه نوادر تلك الصفة وعجائبها، ويصُبح علما لتلك الصفة في كل ما يرُوى عنها وينسب إليه،

فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم جميعًا بغير سند، والمشهوربالشجاعة يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة، أو صاحب نادرة مثلها، إن لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها.

وينبغي أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد، وأن المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائناً ما كان، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم، وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد في تاريخ من التواريخ، ثم اختلفت الكنائس فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير، واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر،ويرجح أنها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي كانت تتخذه عيدًا للشمس، تعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام، لأن الاعتدال الخريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار.

ولا يخفى أن بولس الرسول قد وُلد في طرسوس، وهي مركز من مراكز الديانة المثرية، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيراً لإقناع أتباعها بالدعوة الجديدة، فلم يزل من سياسة التبشيرفي جميع الدعوات أن تيسر في هذا الباب ما يُستطاع تيسيره، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون، إذ نقل الراهب Bade في تاريخ الكنيسة الإنجليزية خطاباً لغريغوري الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية)، يستشهد فيه بنصيحة المستشار بالبابوي مليتس Mellitus الذي كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية، ويرى الإبقاء عليها «وتحويلها من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق، كي يهجر الشعب خطايا قلبه، ويسهل عليه غشيان المعاهد التي تعود ارتيادها[1]».

ولا خلاف في تكرار العدد «اثني عشر» في كثير من الديانات، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية، وقد كان خليقًا بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة، إذ أقرب المؤرخين إليهم سوتنيوس صاحب تاريخ «القياصرة الاثني عشر»، وكلهم من «الشخصيات التاريخية».

---

1 كتاب من الوثنية إلى المسيحية في الدولة الرومانية (الفصل الثاني).
Paganism into Christianity in the Roman Empire by Hyde.

وفي تاريخ الإسلام تفصيل مذهب الشيعة الإمامية، وهم يدينون بالولاء لاثني عشر إماماً معروفين بأسمائهم، ليس منهم من يمكن أن يقال فيه إنه «شخصية غيرتاريخية».

على أن النقاد الذين شكوا في وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك في وجود يوُشعبن نون، وظنوا فيه كما ظنوا في السيد المسيح أنه رمز من رموز العبادات الشمسية، لأنه يسير الشمس ويوُقفها عن مسيرها،ولم يصل إلى علم هؤلاء النقاد أن اسم يوشعبن نون وُجد منقوشًا على حجر عند «نوميديا» بشمال إفريقية، حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم «قارة حداشة»، التي عُرفت فيما بعد باسم قرطاجة، وعلى ذلك الحجرالذي كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية، يقول كاتبوها: « إننا خرجنا من ديارنا، لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون[1]»، وليس كاتبو هذا الكلام عن النبي الإسرائيلي ممن يتهمون بالحرص على إثبات وجوده، ونفي الشبهات عن سيرته وتاريخه.

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً في اصطياد المشابهات من هنا وهناك،ولم يكلفوا أنفسهم جهدًا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد، وهو استخدام المقارناتوالمقابلات لإثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية، فمتى حدث فيَّ تاريخ الأديان أن أشتاتاً مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها، وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى؟ ومن هو صاحب الرغبة أو صاحب المصلحة في هذه الدعوة؟ وأي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد؟ وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد؟ ولماذا كان يخفي مصادرالشعائر والمراسم الأولى، ولا يعلنها إلا منسوبة للسيد المسيح؟

إن استخدام المقارنات والمقابلات في تحقيق هذه المسابقة أولى بمؤرخي الأديان من كل ما جمعوه أو فرقوه، لينتهوا به إلى فرض منقطع النظير.

***

على أن صناعة النقد التاريخي تتهم نفسها بالعجز البالغ، إذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروي في تقرير «شخصية القائل» وتحقيق مكانه من التاريخ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبئنا في هذه الناحية عن كثير.

---

1 الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Papers s'Chamber .

فمهما يكن من فصل القول في استقلال كل إنجيل أو اعتماد بعضها على بعض، فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كُتَّاب الأناجيل؛ لأنها علامات نفهمها الآن وفاقًا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية، ولم يكن لها محل في رءوس الرواة المشاهدين أو الناقلين.

فإن روايات الأناجيل تطُابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهايتها، ومن التطور المعقول أن تبتدئ الدعوة قومية عنصرية، ثم تنتهي إنسانية عالمية، وأن تبتدئ في تحفظ ومحافظة، ثم تنتهي إلى الشدة والمخالفة، وأن تبتدئ بقليل من الثقة في شخصية الداعي، ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع والأشياع، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن يتعمد كُتابها تطبيق أحوال التطور،أو تلتفت أذهانهم إلى معنى تلك الأحوال.

وربما كان أوضح من هذا في الإبانة عن شخصية الداعي أن أقواله تتضمن نقدًا لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره، وأن هذه الأقوال تشُير إلى وجهة نظرواحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية.

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين، ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظرالصدوقيين أو السامريين.

وتنتقد أصحاب النصوص، ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الإباحيين والمتحللين.

وتنتقد الآسين المتعصبين، ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين، وتنتقد السامريين، ولكنها لا ترفض السامرية بتاتاً ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود.

وتستشهد بأقوال موسى وإبراهيم والأنبياء، ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة، ولا تقتدي بها اقتداء التابع للمتبوع.

وإذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها إلى وجهة نظر متناسقة، وقوام شخصي مرسوم،وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع، لأن التناسق الذي يجري مجرى الأعمال الآلية وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة، ولاسيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت.

هذه علامات «موضوعية» لها شأنها الأكبر في الإبانة عن شخصية السيد المسيح،وأصدق تلك العلامات، بعد هذا كله أن الدعوة جاءت في إبانها وفاقًا لمطالب زمانها،بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقول بالدعوة ويصلح لأمانتها، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون، ولو أن مؤلفًا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولاًيوافق رسالته المنشودة، لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع.

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التي حُفظت للسيد المسيح، صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع، وزعم رواتها أنها كُتبت بقلم ببليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها إلى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد،وجاء فيها: «إنه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمي يسوع، ويدعوه تلاميذه بابن لله، وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معًا، فيحبه من يراه ويخشاه، شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول، ولكنه في جانبَّ الأذن أجعد لماع، وجبينه صلت ناعم، وليس في وجهه شية، غير أنه مشرب بنضرة متوردة، وسيماه كلها صدق ورحمة، وليس في فمه ولا أنفه ما يعُاب، وعيناه زرقاوان تلمعان، مُخيف إذا لام أو أنب، وديع محبب إذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك، ورآه الكثيرون يبكي، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال «إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي أسنادها التاريخية، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعُقل، ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى، كقول بعضهم إنه كان قميئاً أحدب دميم الصورة، فإن الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق، وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه، فمن غيرالمعقول أن يتصدى للرسالة من يعُاب بالحدب والدمامة والقماءة معاً، وأن يخلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره من الإشارة إلى ذلك في معرض المذمة، أو معرض العجب، ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية.

نعم إن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبْرئهم، ويساقون إليه ليشفيهم من الشوهة والآفة.

وليس في الأناجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح تصريحًا أو تلميحاً يفهم من بين السطور، ولكن يؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة أنه رائع المنظر ملكي الشارة، إذ قال له: «أنت ابن لله، أنت ملك إسرائيل»، وأراد المسيح أنْ يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته، ولكنها على أية حال تحية لا تقُال للأحدب، ولا للدميم المشنوء.

غير أننا نفهم من أثر كلامه أنه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه، وذلك الذي قيل عنه غير مرة إنهم أخذتهم كلماته لأنه «يتكلم بسلطان»، وليس كما يتكلم الكتبة والكهان.

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما فُوجئ باعتراض أو مكابرة،وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة، لأن وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر، ولا يرُسل إرسالاً على غير نسق، ويغلب عليه إيقاع الفواصل، وترديد اللوازم، ورعاية الجرس في المقابلة بين الشطور.

وذوق الجمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره، والْتِفاته الدائم إلى الأزهار، والكروم، والجنائن التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله، عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والإعجاب بمحاسن الطبيعة، وكثيراً ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه، ويتخذ من السفينة على البحيرة – بحيرة طبرية – منبراً يخطب منها لمستمعين على شاطئها المعشوشب، كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة، وصفقات الموج، وخفقات النسيم، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق، حيث يقضي سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال، وتحت القبة الزرقاء.

وقد أطبقت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النِّساء، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء، كأنهن مأسورات مسحورات، ومنها من تتعلق بهم نظرات النساء، لأنهم يلعجون أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء، ولكن الرجل العظيم الذي يجتذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة، ويبسط عليها الطمأنينة، ويفعمها بحنان الطهر والقداسة، ويريحها من وساوس الضعف والفتنة؛ أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم، وهو الذي من أجله ينسين الجسد، ويرتفعن بحبهن لهفوق مناط الظنون.

لهذا لا نستغرب أنْ يقال إن قرينة بيلاطس كانت تحُذِّر قرينها أن يمس ذلك الإنسان الصالح، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته، وهجرت زينة الحياة، ومنهن الغواني اللواتي تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع.

وقد وصف نفسه بأنه «وديع متواضع الفؤاد»، وقال إن الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء، وتمثلت الوداعة في كثير من أقواله وأفعاله، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين، وهي الرحمة التي تبلغ الغاية حين تأتي من رسول مُبرأ من الخطايا والعثرات.

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والأمهات،«من هي أمي ومن هم إخوتي؟ من يصنع مشيئة أبي في السماوات هو أخي وأختي وأمي»، «من ليس معي فهو عليَّ ، ومن لا يجمع معي فهو يفرق»، «وإن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته، حتى نفسه، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذًا».

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها على مريديه، هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت، ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكناية، فالقول الصراح الذي لا خلاف عليه أن التجرد من أواصرا لمنافع والشهوات أول الآداب التي يتأدب بها الجنود في كل ملحمة: جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال.

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أنْ يقدموا على المخاطر في سبيل الحق والهداية، ولكنه كان يقُيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الإقدام على الموت وجوباً لامثوية فيه، فالخطر على الروح إذا كان موت الروح في الحسبان، فإن لم يكن خطرعلى الجسد ولا على الروح فلا خير في المخاطرة، وكونوا بسطاء كالحمائم، وحكماء كالحيات.

وفي إنجيل مرقس أن السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لإهلاكه، وفي سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبثه حين أحدق به الخطر، وأنه كان يدعو لله أن يجُنبه الكأس التي هو وشيك أن يتجرعها، وأنه كان يقول لتلاميذه:»نفسي جد حزينة. امكثوا ها هنا واسهروا». وأنّه كان يعتب عليهم حين يراهم نيامًا على مقربة منه، وهو يعُاني برحاءه وأشجانه،ويقول لهم: ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء: الآن ناموا واستريحوا!

فليس الإقدام على الجهاد أنْ تتجرد النفس من طبيعتها في وجه المخاوف والمتالف،وليس محظورًا على النفس في سبيل ذلك الجهاد أنْ تأخذ بالحيطة، أو تلوذ بمن تحب،وتستمد العون

من عواطف المحبين، وإنما المحظور عليها أنْ تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح، وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام.

ومن تحصيل الحاصل أنْ يُقال إن السيد المسيح خُلق على فطرة أمثاله منأصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية، وهذهالرياضة الروحية هي التي تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق، والتنقيب في أعماق ضمائرهم، لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب أو الابتعاد عن طريقهم إلى لله، فهم يشُرفون على النُّور حيناً، ويحتجبون عنه حيناً، ويعودون إلى طواياهم في كل حيني حُاسبونها على إشراقه أو احتجابه، ويستبشرون تارة، لأنهم يلمحون معالم الطريق، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة، لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة، وتتهيأ للثبات والاستقرار، وتتخذ العدة لليقين والإيمان.

لا ريب أن هذه الرياضة هي التي عناها كتاب الأناجيل بفترة التجربة في البرية حيث تعيش الشياطين، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الإقدام والإحجام، حيث تطمئن النفس ساعة، ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى، ثم تعاف التجربة، لأنها تسليم بالشك حيث ينبغيَّ التسليم بالثقة، لأن رسالة لله حقيقة بكل فداء، وأهل لكل ثمن وكل جزاء، ولكن منلك أيها الضمير؟! إنك أنت المختار لرسالة لله. أوَتطلب البرهان؟! فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان، وبين صدق الإيمان؟!

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم، ونحسبه بعد ذلك كان يعُالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع،

وكان يستلهم الحوادث إرادة الغيب حيث تحتجب عنه هذه الإرادة، فيترك الحوادث تمضي ويمضي معها، وينتظر ما تحكم به المقادير، وفي هذه المواقف يخُيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالإحجام مخافة العواقب، فذاك مسعاه إلى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين: مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل، ومرة وهو يدخلها بين النذروالشباك، وخيانة الأصحاب، ودسيسة الأصدقاء.

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الاستلهام والاستطلاع خيراً من طلب البرهان، وخيراً من النكوص، ما لم يكن هنالك برهان، وماقال قائل في أمثال

تلك المواقف: «ليفعل لله ما يشاء» إلا وهو يترك للمقادير أن تظهرمن مجرى الحوادث حيث تجري بها مشيئة الله».

في لحظات كهذه اللحظات يغوص الإنسان كله في أعماق ضميره، ولعل لحظة من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون إليه إنه غائب عن نفسه، أو هي التي صمت فيها لا يحير جواباً، لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب، أو هي التي أقدم فيها لا يبُالي بسلامته وعاقبة أمره، ولم يكن فكره قاصرًاعن استطلاع العواقب جميعًا في موقف من تلك المواقف الحاسمة، ولكن المشكلة الكبرى كلها في استطلاع العواقب، فهل تراه لا يقدم على العواقب إلا بضمان من البرهان؟ إن أعمال أصحاب الرسالات لا تفُهم على حقيقتها ما لم نفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل، وهي أن الشك أخوف ما يخافونه، وأن استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه، وكثير اً ما يقدمون على جسام الأمور، لأن التسليم أقرب إلى الإيمان، ولأن الإحجام شك، أو انتظار برهان، والشك وانتظار البرهان يستويان في بعض الأحيان.

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل إلى لله في أخُريات رسالته قائلًا: «اللّهم جنبني هذه الكأس، لكن كما تريد أنت لا كما أريد».

وفي هذا الابتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف فإنه لم يتجنب الكأس كما يرُيد، بل ترك لله أن يجُنبه إياها كما أراد، وموضعَّ الشبهة في نفسه الشريفة أن السلامة هي ما يرُيده، وأن النُّكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس، فليكن مسيره إذن في غير هذه الطريق، ولكن التسليم هو طريق الإيمان.